خطبة صلاة الجمعة 24/5/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة –16– الحِدَّة عند الخصومة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذا أخْطَأَ خطيئَة نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإذا هو نزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: 14]» [أخرجه الترمذي].

هذه هي الخطبة السادسة عشرة في سلسلة: (**أخطاء شائعة**).

هدف السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي) وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوعين، وعنوانها: (الحِدَّة عند الخصومة).

- عقد شاب على فتاة عقداً خارج المحكمة (كتاب شيخ)، تعارفت الأسرتان وتقاربتا، وتبادلتا الزيارات والضيافات والهدايا والإكرام.

حدَث أن تخاصم العاقدان ونمت الخصومة ولم يجدا معيناً ليوقفها عند حد، فأرادت الفتاة طلاقاً وأراد الفراق، غير أنه من ستة أشهر لم يزرها ولم يتصل بها ولم يُلْقِ عليها كلمة الطلاق، ولم يعطها حقها ولم تسامحه بشيء، ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن لم يستطع أحد التوسط لدى الاثنين للوصول إلى حل.

فلا الزوج راض بتسريحها بإحسان يقول: إن كان لكم حق عندي فخذوه في المحكمة!

ولا الزوجة راضية له الإبراء، تقول: لي عليه حق لا أسامحه به!

(الحِدَّة عند الخصومة)

- اشتركا في تجارة دَرَّت عليهما أرباحاً كبيرة، وعاودا الشراكة مرَّاتٍ ومرَّات، حصلت بينهما يوماً خصومة، وظنَّ كل منهما أنه على الحق، ولم يُوفَّقا إلى من ينزع فتيل الأحقاد، فقرَّرا حلَّ الشركة، وراح كل منهما يوغر صدور الناس على خصمه ويشيع عليه الأراجيف، وزادت الحِدَّة فيهما فكلٌّ منهما يريد تحطيم الآخر وإخراجه من السوق.

(الحدة عند الخصومة)

- وقعت قطيعة بين زوجين وأراد أحد الشيوخ التوسط بينهما، ولما اجتمع بالزوجة وأهلها وراحوا ينعتون الزوج بأسوء النعوت، سأل الشيخ الزوجة: هل تستطيعين ذكر ثلاثة محاسن في زوجك؟ فاستغرب عندما أجابت: لم أجد فيه حسنة واحدة!

(الحدة عند الخصومة)

- كانت بينهما شراكة قديمة يجلبان فيها الخير لنفسيهما وللناس، حدثت بينهما خصومة أوغرت الصدور وأَجَّجَتِ الأحقاد، فراح كل منهما يؤذي الآخر بما استطاع، ووصل الأمر بكليهما إلى كتابةِ تقاريرٍ أمنيةٍ غيرِ صادقة لإيصال الأذى لشريكه القديم.

(الحدة عند الخصومة)

أيها الإخوة:

كثيرٌ منا لهم عند الوِفاق وجهٌ بشوشٌ، ومنطق حسن، وكرم واسع، وتساهل وتسامح.

ولكن عدداً منا إذا اختلف مع غيره أو انزعج منه أو خاصمه تميَّز من الغيظ، وانشق من الغضب، واحتدَّ والتهب، فطارت منه شِقة في الأرض وشقة في السماء، يزبد ويرعد، ويرفع ويخفض، ولا يقبل بحل ولا يرضى بتحكيم!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» [الترمذي].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وهِيَ الْحَالِقَةُ أما إني لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**» [الترمذي].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ**» [البخاري ومسلم].

والإسلام أيها الإخوة دين مثالي واقعي يدعو أتباعه إلى ترك الخصومات وعدم إحداثها أصلاً –وهذه مثالية–.

يؤدبهم بأدب الخصومة فيما لو وقع بينهم صدام أو خصام –وهذه واقعية –.

حتى لا تحتدَّ عند الخصومة يطلب منك خمسة آداب:

1. **مراقبة الله تعالى في الخصومة:**

عن الزبير قال: (**لما نزلت** ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31]، **قال الزبير: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة يوم القيامة، بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: «نعم»، قال إن الأمر إذاً لشديد**) [الترمذي].

فمهما أردت أن تقول في الخصومة فقل، ومهما أردت أن تفعل فافعل؛ ولكن اعلم أن الله يراقبك وأن قولك وفعلك معروضان عليه.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، **أَنَّ رَجُلاً قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لاَ لَكَ وَلاَ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ» قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾» فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَهُمْ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ** [الترمذي].

أورد السيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 31]: **(يؤخذ للمظلوم من الظالم، وللمملوك من المالك، وللضعيف من الشديد، وللجماء من القرناء حتى يؤدى إلى كل ذي حقٍ حقه).**

2. **الاحتكام في الخصومة للشرع، والنزول على حكمه:**

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65] فمن رضي في الخصومة بحكم الشريعة فقد عدل وأنصف، ومن لم يرض فقد جار وبغى.

ومراراً ما رأيت -أيها الإخوة- خصوماً نزلوا على حكم الشريعة في خصومتهم فسَلِموا من الأحقاد والآثام وعوَّضهم الله خيراً مما فقدوا.

ورأيت من لم يرض بحكم الشرع فندم ندامة الكُسَعِي.

3. **الاعتدال في الخصومة وعدم الإغراق بها، وترك للصلح موضعاً.**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: **(أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا)** [الترمذي].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَى بِكَ إِثْمًا أَنْ لاَ تَزَالَ مُخَاصِمًا» [الترمذي].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ» [البخاري ومسلم].

الأَلَدُّ الخَصِمُ: أي شديد الخصومة.

وقديماً قالوا صلح خاسر خير من قضية رابحة، وحدَّث أحد أساتذة الحقوق المعمرين عن واحدٍ من القضاة أنه في القصر العدلي خصومات يترافع عنها الآن وَرَثَةُ الورثة.

قيل لأبي سفيان رضي الله عنه: **ما بلغ بك من الشرف؟ قال: ما خاصمتُ رجلاً إلا جعلتُ للصلح موضعاً.**

وقال ابن شُبرمة (القاضي الفقيه): **من بالغ في الخصومة أَثِم.**

4. **لا تأخذ في الخصومة غير حقك، ولو حَكَمَ لك مَنْ حكم.**

فلعلك تقع على محامٍ نِحرير يجلب لك من خصمك حقك وزيادة، فخذ حقك ورُدَّ الزيادة.

ولعل خصومتك تصل إلى قاضٍ بينك وبينه صلة فتأخذهُ صلةُ القرابة أو الصحبة فيحكمُ لك بحقكَ ويزيدك، فخذ حقك ودع الزيادة.

ولعلك ترفع ظُلامتك لشيخ الشيوخ وأتقى الأتقياء فيحكمُ لك، وأنت تعلم علم اليقين أن الأمر عليك لا لك، فلا تأخذ إلا حقك ولا تتوانى أن تؤدي لخصمك حقه ولا تقل هكذا حكم لي القاضي أو الشيخ الفلاني فإن ذلك لا يعذرك أمام الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

قال ابن كثير في تفسيره: دلت هذه الآية وهذا الحديث على أنَّ حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُحِلُّ في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً وهو حلال ... وإن للحاكم أجره وعلى المحتال وزرُه.

قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يُحلُّ لك حراماً، ولا يُحقُّ لك باطلاً ... واعلموا أن من قُضيَ له بباطلٍ في خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي على المبطل للمحق بأجودَ مما قُضيَ به للمبطل على المحق في الدنيا.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**» [البخاري ومسلم].

5. ضبط اللسان في الخصومة وفق الشرع:

فأكثر ما يقع الخصوم في أعراض بعضهم، وفي تنقيص بعضهم، وفي سبٍ وفُحشٍ وبذاء وفجور.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» [البخاري ومسلم].

ومعنى فَجَر: أي انبعث في المعاصي والمحارم.

أيها الإخوة:

الحِدَّة عند الخصومة خطأ، والصواب الاعتدال والتحلي بآداب الشرع فيها.

نسأل الله أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتَّى يعجِّل لنا بالفرج

والحمد لله رب العالمين